تحديات الوضع الديني والثقافي والجمعوي في إسبانيا

قال نور الدين زياني، رئيس اتحاد المراكز الثقافية الإسلامية في كاطالونيا، إن الوضع الديني للجالية المغربية بإسبانيا بالغ التعقيد، حيث تتداخل فيه مجموعة من المعطيات والتوجهات والهيئات الدينية المتشابكة.

وتحدث زياني، في مقابلة مع البوابة الإلكترونية لمجلس الجالية المغربية بالخارج، عن أبرز العوائق التي تعترض مسار تدريس اللغة العربية لأبناء الجاليات الإسلامية المقيمة في إسبانيا، وحددها في: قلة الساعات المخصصة للتدريس، وغياب مقرر موحد يراعي الجوانب البيداغوجية للنشء، وعدم توفر غالبية المساجد على قاعات للدرس، تضاهي ما هو موجود في المدارس الحكومية، وغياب الإطار المدرس صاحب الكفاءة، وفقدان الآباء لملكة المراقبة والمتابعة لمستويات أبنائهم التعليمية.

كما تطرقت المقابلة أيضا إلى قضية تكوين الأئمة، وذكر زياني مجموعة من التحديات التي تواجه عمل الأئمة، منها: اقتصار معظم الأئمة على تحصيل شرعي دون المتوسط، وسلبية الإمام الزائدة عن الحد، وعدم إتقان اللغة المحلية....

أما بخصوص العمل الجمعوي خاصة في كاطالونيا، رصد زياني مجموعة من العقبات التي تحول دون بناء عمل جمعوي فاعل وفعال، منها: غياب الوعي الجمعوي لدى غالبية المكاتب المسيرة، والصراعات التي تعيشها الهيئات الدينية الكبرى.

فيما يلي نص المقابلة.

بداية، كيف تقيم وضع الجالية المغربية بإسبانيا خاصة على المستوى الديني؟

الوضع الديني للجالية المغربية بإسبانيا بالغ التعقيد، حيث تتداخل فيه مجموعة من المعطيات والتوجهات والهيئات الدينية المتشابكة. ولعل أبرز ما يمكن أن يسجله المراقب للتواجد الديني للمغاربة بإسبانيا، التأخر الحاصل للكوادر المغربية داخل هذه الهيئات، حيث إذا قارناها ببلدان مثل هولاندا أو بجيكا أو فرنسا، سنلاحظ الفرق الشاسع والجلي، وذلك راجع حسب رأيي إلى نوعية المهاجرين المغاربة القادمين إلى إسبانيا حيث المستوى الثقافي العادي أو المنعدم في بعض الأحيان، والطبيعة النفسية لدى الساكنة الإسبانية والتي تستشعر بعض قرون من الصراعات والحروب، والرغبة الخفية

والتي وإن كانت غير صحيحة، لدى الجالية في استرجاع الجزيرة الإيبيرية إلى المسلمين، وخاصة المغرب، وهو ما يبرر بعض عمليات التضييق التي يعاني منها المغاربة خصوصا، ولعل أبرز تجلياتها وقوف الدولة الإسبانية من انتخابات فيدرالية الهيئات الدينية بإسبانيا (الفيري).

ولعل حالة اتحاد المراكز الثقافية الإسلامية بكطالونيا تشكل حالة فريدة تستحق الدراسة، ذلك أنه جاء بعد سنوات من عمل بعض الهيئات الدينية والتي يمثل المجلس الإسلامي أوضح مثال عنها، ذلك أننا بالنظر إلى التواجد على الميدان، نلاحظ ذلك الاحتفاء الذي طالما أبدته مديرية الشؤون الدينية ومن ورائها الحكومة الكطالانية، حيث شارك ونظم العديد من اللقاءات والمؤتمرات والندوات، لكن المنصف سيطرح سؤالا جوهريا وحوريا ومركزا وهو: ماذا قدمت هذه الهيئات للمغاربة على وجه الخصوص؟ هل كانت من المدافعين حقا عن كرامة المغاربة؟ هل كانت تمثل المغاربة ذلك التمثيل المشرف، والذي ليس فيه أي إيحاء بالتبعية؟ هل استطاعت أن تجعل من العمل الجمعوي المرتبط بالمغرب، ذلك العمل الرائد والمتميز والمثمر والمحقق لآمال وتطلعات الجالية المغربية؟ أسئلة كثيرة قد لا يستطيع المسؤولون عن هذه الهيئات الإجابة عنها، وإن أجابوا ستكون الإجابات معممة ذات نمط معروف...

تعرف مجموعة من الدول الأوروبية محاولات متعددة وتجارب عديدة تتعلق بتدريس اللغة العربية لأبناء الجاليات المقيمة في تلك البلدان. ما هو تقييمك لهذه المحاولات خاصة في إسبانيا؟

أعتقد أنه رغم التقدم الحاصل في قضية تدريس اللغة العربية لأبناء الجاليات الإسلامية المقيمة في إسبانيا، إلا أن هذا المجال تعترضه مجموعة من الصعوبات والمعيقات، لعلنا نجملها في الجوانب التالية:

أولا: تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها من بين المهام الصعبة، وذلك راجع إلى قلة الساعات المخصصة للتدريس والتي لا تتجاوز في أغلب الأحيان ولدى غالبية المساجد أربع ساعات في الأسبوع. وبالمقارنة مع ساعات اللغة الإسبانية واللغة الكطالانية، لا تعتبر شيئا يذكر. أضف إلى ذلك أن الشارع والأسرة والأصدقاء والمحيط بصفة عامة، يقلل من إمكانية التخاطب باللغة العربية، وهو ما

يؤدي إلى نسيان ما يتعلمه النشء بصفة سريعة، ويحتاج كل أسبوع إلى التذكير، وهو ما يشتت الجهود ويضيع من فرص التلقي لحصص جديدة.

ثانيا: غياب مقرر موحد يراعي الجوانب البيداغوجية للنشء، ويتماهى مع طبيعة المجتمع المستقبل، ويتماشى مع تقنيات المعلوميات، ويحاول أن يستفيد منها لترقية ضوابط تلقي اللغة العربية، وإنجاح أسباب التخاطب بها، على الأقل داخل الأسرة وفي المسجد، ومع الأستاذ، الذي يجد في بعض الأحيان صعوبة في التواصل مع النشء.

ثالثا: عدم توفر غالبية المساجد على قاعات للدرس، تضاهي ما هو موجود في المدارس الحكومية، وهو ما يولد لدى الأطفال رغبة عارمة في اللعب، ورفضا للتفاعل مع الأستاذ، وذلك لأن المساحة التي يوفرها المسجد للأطفال تعتبر بمثابة قاعة للألعاب وحظيرة للجري والقفز، مما يولد أفكارا مشتتة بتشتت المكان الذي يتواجد فيه النشء، وتغيير المكان بين لحظة وأخرى.

رابعا: غياب الإطار المدرس صاحب الكفاءة من حيث اللغة، والانضباط في الوقت، والشخصية الكاريزيمة القادرة على قيادة الأطفال، والقدوة الحسنة والمحببة لديهم، ولذلك، تجد في أكثر المساجد أطفالا مشاغبين لدرجة مزعجة، ومعلمين أو أساتذة أو أئمة لا يتورعون عن استعمال الضرب والألفاظ النابية والمهينة في تعاملهم مع الأطفال...

خامسا: فقدان الآباء لملكة المراقبة والمتابعة لمستويات أبنائهم التعليمية، حيث أنهم يتفاعلون مع المؤسسات الرسمية، ويهملون تعليم أبنائهم اللغة العربية، وبعضهم يرسل الأطفال فقط ليوفر جو من الحرية أو الهدوء داخل المنزل.

سادسا: الخلط بين تحفيظ القرآن وتعليم اللغة العربية، وهو ما يؤدي أن يسيطر أحدهما على الآخر، دون أن يكون هناك تناسق مثمر وفعال بينهما.

يجرنا الحديث عن الوضع الديني في إسبانيا إلى الحديث عن دور الأئمة والإكراهات التي تعترض سبيلهم، وتحول دون القيام بدورهم على أحسن وجه. ما رأيك في هذه المسألة؟

قد لا يختلف اثنان أن الإمام يشكل الحلقة الجوهرية والمهمة، وذلك للدور الذي يلعبه داخل الجماعة. ولكن النظرة العميقة تبين لنا مجموعة من الاختلالات التي في بعض الأحيان تشكل أكبر عائق نحو تقدم الجماعة ولعب دور ريادي يشرف الجالية المسلمة. ويمكن تلخيص بعض النقاط السلبية عن الأئمة في كطالونيا على وجه التحديد:

أولا: اقتصار معظم الأئمة على تحصيل شرعي دون المتوسط، مقتصر فقط على حفظ القرآن ومتن ابن عاشر في المذهب المالكي.

ثانيا: سلبية الإمام الزائدة عن الحد، حيث يلتزم فقط بأداء الصلوات وتدريس الأطفال، ويحرم من أي تمثيل للجمعية أو للجماعة لدى الجهات المتدخلة أو المؤسسات الحكومية.

ثالثا: عدم إتقان اللغة المحلية، وعدم الرغبة لدى جل الأئمة في التحصيل اللغوي رغم أن الفرص متاحة.

رابعا: مظاهر المذلة والمهانة التي لا يعترض عليها معظم الأئمة والممارسة عليهم من طرف بعض المسؤولين.

وبما أن الأمر يتعلق بالأئمة وتكوينهم، فإن هذا التكوين لم يستطع أن يرجع للإمام تلك الشخصية المفقودة، بل أكثر من ذلك عمق الفارق المعرفي بين الأئمة والمحيط، وكرس تلك الدروس التي هي أكاديمية أكثر من اللازم، حيث لم ترتبط بالواقع المعيش ولم تلامس فقه الواقع، ولم تتعرض لبعض النوازل الفقهية التي تعترض عمل وفتوى الأئمة، وأكثر من ذلك لم تستطع أن توحد مجال الدعوة والفتوى لدى هؤلاء الأئمة الذي تفرقت بهم الشعب وتنوعت معهم القضايا، وأصبح الأئمة المغاربة خصوصا، ذوي توجهات واجتهادات خارج المذهب المالكي المعروف عند المغاربة.

يشهد العمل الجمعوي المرتبط بالجالية المغربية في إسبانيا تطورا ملحوظا مقارنة مع بداياته الأولى. ما هي في تصورك العقبات التي يجب على هذا العمل تجاوزها من أجل أن يتحول إلى قوة ذات تأثير وفعالية وفاعلية أكثر؟

العقبة الأولى هي غياب الوعي الجمعوي لدى غالبية المكاتب المسيرة، وعدم وجود تصورات واقعية، ومعظم الجمعيات منضوية تحت فيدراليات مشهورة لكن أغلبها غير مستفيد حتى من الخدمات القانونية أو المساعدات المالية البسيطة التي يمكن أن تستفيد منها هذه الجمعيات.

إضافة إلى عقبة أخرى تتمثل في الصراعات التي تعيشها الهيئات الدينية الكبرى، وتجر معها الجمعيات، حيث تجد في المدينة الواحدة جمعيات منتمية لهيئات دينية مختلفة، مما يزيد من حالات التنافر والتباعد، ويقلل من إمكانية تحقيق أي إنجازات على أرض الواقع يمكن أن تخدم الجالية المسلمة بصفة عامة والمغربية بصفة خاصة.

وإذا تتبعنا جل المكاتب المسيرة للجمعيات، نجد أن نسبة تواجد المغاربة فيها تصل في بعض الأحيان ما بين 60 % أو حتى 100 %، لكن ما هي نسبة تأثير المغاربة في هذه الجمعيات؟ أو بطريقة أخرى: أين يتجلى التمظهر المغربي الصرف داخل هذه الجمعيات؟